

بسم الله الرحمن الرحيم

الفقه والفقهاء في حواضر العلم ببلاد الغرب الإسلامي - القيروان وصقلية أنموذجين -

د- عبد الحكيم بوزايدي
المدرسة العليا للأساتذة - بوزريعة -

الملخص:

أحاول في هذا المقام الحديث عن فن من فنون العلم في حواضر بلاد الغرب الإسلامي، ألا وهو: الفقه؛ وفي حاضرتهين متقاربتين من حواضر العلم، هما: القيروان وصقلية؛ وهذا بغرض الإحاطة والإلمام أكثر بخابيا زوايا حواضر بلاد الغرب الإسلامي وما تخفيه من درر مكنونة، وكنوز ثمينة مغمورة، حتى تشرق شمسها من جديد ولو من مغربها! وقد سمت هذه الأسطر بـ: " الفقه والفقهاء في حواضر العلم ببلاد الغرب الإسلامي - القيروان وصقلية أنموذجين -".

لا تخفى أهمية الموضوع، التي تكمن أساسا في بيان إسهامات الحواضر العلمية في بلاد الغرب الإسلامي في نشر العلوم بين الناس عموما، والفقه الإسلامي خصوصا، وما ينجم عن ذلك من إزالة كثير من الغموض والإشكال والحيرة والالتباس.

فهل كان لحواضر العلم في بلاد الغرب الإسلامي أثر في تكوين الفقهاء وتطوير الفقه الإسلامي والنهوض به، في جهة حساسة من جهات وطن إسلامي مترامي الأطراف، تترصده أعين الأعداء، وأياد خفية للعملاء؟ يتفرع عن هذا الإشكال العام المطروح، أسئلة فرعية متعلقة به تتمثل أساسا في الآتي: ما هي حالة الفقه والفقهاء عموما في حاضرتهين القيروان وجزيرة صقلية؟ وهل كان الفقه في حاضرة صقلية امتدادا لما كان عليه في حاضرة القيروان؟ ومن هم أبرز الفقهاء الذين أنجبته تلك البطون العلمية؟ أهم ما توصلت إليه في ختام هذه الأسطر تمثل أساسا في العلاقة الوطيدة التي جمعت بين الحاضرتهين في جانبها الفقهي، حيث كانت صقلية امتدادا لما كانت عليه القيروان.

الكلمات المفتاحية:

الحواضر العلمية؛ بلاد الغرب الإسلامي؛ الفقه؛ القيروان؛ صقلية.

Summary:

In this regard, I try to talk about one of the arts of science in the metropolises of the Islamic West, which is: jurisprudence; and in two closely related metropolises of knowledge, namely: Kairouan and Sicily; This is for the purpose of being more familiar with the mysteries of the corners of the cities of the Islamic West and what they hide from hidden pearls, and hidden precious treasures, until the sun rises again, even from the west! These lines were labeled: "Alfiqh and alfuqahs' in the Cities of Science in the Islamic West – Kairouan and Sicily are two examples."

The importance of the subject, which lies mainly in the statement of the contributions of the scientific metropolises in the Islamic West countries to the dissemination of science among people in general, and Islamic jurisprudence in particular, and the resulting removal of many ambiguities, confusion and confusion about them.

Did the cities of knowledge in the Islamic West have an impact on the formation of jurists and the development and advancement of Islamic jurisprudence, in a sensitive area of a vast Islamic homeland, which is watched by the eyes of enemies, and hidden hands of agents? From this general problem posed, sub-questions arise related to it, which are mainly represented in the following: What is the state of jurisprudence and jurists in general in the metropolises of Kairouan and the island of Sicily? Was jurisprudence in the metropolis of Sicily an extension of what it was in the metropolis of Kairouan? Who are the most prominent jurists who gave birth to those scientific bellies?

The most important thing I reached at the conclusion of these lines was mainly the close relationship that brought together the two presents in its jurisprudential aspect, as Sicily was an extension of what Kairouan was.

Keywords:

scientific metropolises; countries of the Islamic West; Alfiqh; Kairouan; Sicily.

مقدمة:

تأسست العديد من الحواضر العلمية في الجهة الغربية من العالم الإسلامي الفسيح، والتي كانت إشعاعاتها تضيء المشارق والمغرب في الوقت نفسه، ولعل من أبرزها: القيروان أم الحواضر هناك، وقرطبة الجزيرة الخضراء، وتلمسان وبجاية الغراء، وغيرها كثير.

إن الحديث عن العلم في حواضر العالم الإسلامي، حديث ذو شجون وجذور وأصول، ممتدة ومتشابكة، لا تسعه أسطر معدودة ولا صفحات محدودة، فحيثما رحلت وارتحلت في أرجاء العالم الإسلامي، وعبر عصوره وأمصاره المختلفة، لا تكاد تحصر ما دون وألف، وما طمس أو أخفي أعظم.

وفي هذا المقام وددت الحديث عن فن من فنون العلم في حواضر بلاد الغرب الإسلامي، ألا وهو: الفقه؛ وفي حاضرتين متقاربتين من حواضر العلم هما: القيروان وصقلية؛ وهذا بغرض الإحاطة والإلمام أكثر بخبايا زوايا حواضر بلاد الغرب الإسلامي وما تخفيه من درر مكنونة وكنوز ثمينة في ثناياها مغمورة، عسى أن تشرق شمسها من جديد ولو من مغربها! وقد وسمت هذه الأسطر بـ: " الفقه والفقهاء في حواضر العلم ببلاد الغرب الإسلامي- القيروان وصقلية أنموذجين -".

لا تخفى أهمية الموضوع التي تكمن أساسا في بيان إسهامات الحواضر العلمية في بلاد الغرب الإسلامي في نشر العلوم النافعة بين الناس عموما، والفقه الإسلامي خصوصا، وما ينجم عن ذلك من إزالة كثير من الغموض والإشكال والحيرة والالتباس عنهم.

فهل كان لحواضر العلم في بلاد الغرب الإسلامي أثر في تكوين الفقهاء وتطوير الفقه الإسلامي والنهوض به، في جهة حساسة من جهات وطن إسلامي مترامي الأطراف، تترصده أعين الأعداء، وأياد خفية للعملاء؟ ويتفرع عن هذا الإشكال العام المطروح، أسئلة فرعية متعلقة به تتمثل أساسا في الآتي:

ما هي حالة الفقه والفقهاء عموماً في حاضرتي القيروان وجزيرة صقلية؟ وهل كان الفقه في حاضرة صقلية امتداداً لما كان عليه في حاضرة القيروان؟ ومن هم أبرز الفقهاء الذين أنجبته تلك البطون العلمية؟ للإجابة عن هذه التساؤلات انتهجت الخطة الآتية:

٢٠ مقدمة.

٢١ مفهوم الحاضرة العلمية.

٢٢ حاضرة القيروان (أصل التسمية، الموقع، سبب بنائها، الدور الحضاري لحاضرة القيروان، حالة الفقه وأبرز الفقهاء، مراكز التعليم والفقه في حاضرة القيروان).

٢٣ حاضرة صقلية (أصل التسمية، الفتح الإسلامي لحاضرة صقلية، حالة الفقه والفقهاء، أهم المؤسسات العلمية الفقهية في حاضرة صقلية).

٢٤ الخاتمة.

٢٥ قائمة المصادر والمراجع.

أولاً: مفهوم الحاضرة العلمية:

والْحَضَرُ وَالْحَضْرَةُ وَالْحَاضِرُ وَالْحَاضِرَةُ: خلاف البادية، وهي المَدُنُ وَالْقُرَى، سميت بذلك لأن أهلها حَضَرُوا الْأَمْصَارَ وَمَسَاكِينَ الدِّيارِ التي يكون لهم بها قَرَارٌ. يقول الحموي: "وكان أبو إسحاق الزجاج يقول: بغداد حاضرة الدنيا وما عداها بادية"⁽¹⁾، وقيل: الحاضرة الْحَيُّ الْعَظِيمُ أَوْ الْقَوْمُ إِذَا حَضَرُوا الدَّارَ التي بها مُجْتَمِعُهُمْ⁽²⁾.

ثانياً: حاضرة القيروان⁽³⁾:

تعتبر القيروان قاعدة الإسلام في بلاد المغرب الإسلامي ومستقر جيوشه وقبلة العلماء، ومن شدة تعلق بعضهم بها بالغ في وصفها إلى درجة اعتبارها رابعة الثلاثة: مكة والمدينة وبيت المقدس ثم القيروان! قال ذلك ابن مرزوق لما حج أكثر من إحدى عشرة حجة!:" ... مازلت أبحث في الآثار والأخبار، إلى أن وجدت أن القيروان رابعة الثلاثة..."⁽⁴⁾.

أ/- أصل التسمية⁽⁵⁾:

القيروان: بفتح أوله، وسكون ثانيه، معرب، وهو بالفارسية كاروان، وقد تكلمت به العرب قديما، قال امرئ القيس:
وغارة ذات قيروان *** كأن أسرابها الرعال
ومعناه: القافلة أو الجيش. والقيروان مدينة معروفة بناها عقبة بن نافع الفهري⁽⁶⁾ بين سنتي: 50 هـ وسنة: 55 هـ.

ب/- موقع حاضرة القيروان:

كان موقعها في واد كثير الأشجار، بعيدة عن البحر، وهذا حتى لا تكون سهلة المنال للأعداء، قال عقبة -رضي الله عنه-: (إنني أخاف أن يطرقها صاحب القسطنطينية بغتة، فيملكها! ولكن اجعلوا بينها وبين البحر ما لا يدركها صاحب البحر، إلا وقد علم به...)⁽⁷⁾.

ج/- سبب بناء حاضرة القيروان:

بُنيت القيروان أساسا لتكون معسكراً للجيش، ومنطلقا للفتوحات الإسلامية، ونشر الإسلام، يقول عقبة -رضي الله عنه-: (إن إفريقية، إذا دخلها إمام، أجابوه إلى الإسلام؛ فإذا خرج منها، رجع من كان أجاب منهم لدين الله إلى الكفر! فأرى لكم، يا معشر المسلمين! أن تتخذوا بها مدينة تكون عزا للإسلام إلى آخر الدهر)⁽⁸⁾.

وقال أيضا - رضي الله عنه -: (فإذا فرغنا منها، لم يكن لنا بدّ من الغزو والجهاد، حتى يفتح الله لنا منها الأول فالأول...)⁽⁹⁾.

بُنيت القيروان على النسق نفسه الذي بُنيت به مدينة القسطنطينية بمصر، حيث جُعل المسجد في قلبها وكان قبلة للمسلمين في باقي بلاد المغرب، ثم بُنيت دواوين الجند ودار الإمارة، ومناطق سكنية تتحلق حول المسجد، وكل قطعة سكنية كانت تضم جنودا من جنود الفتح الإسلامي.

د/- الدور الحضاري لحاضرة القيروان (10):

كان لمدينة القيروان دور بارز ورائد في نشر الإسلام وحضارته الراقية، حيث إنها وإلى جانب كونها مستقرا للجيش الفاتحة، تطورت لتصبح موقع إشعاع حضاري إسلامي.

ولما أصبحت القيروان عاصمة للأغالبة، في نهاية القرن الثالث الهجري، الثامن الميلادي، ازدهرت بها معظم مجالات الحياة كالمجال العلمي والثقافي، والاجتماعي والاقتصادي، فقد استحدثت معاهد علم كان من أشهرها: بيت الحكمة، والمرصد الفلكي الذي بناه المأمون، وشيدوا أعظم معالمها التي تعد مفخرة للإسلام والمسلمين.

تضم مدينة القيروان القديمة خمسين مسجداً، منها الجامع الكبير الذي شيده عقبة بن نافع، وهو أقدم جامع أنشئ هناك، ومن هنا اشتهر بسيد الجوامع المغربية، ويتميز بمنارته التي اتخذت شكلاً هندسياً خالف الطراز الشرقي التقليدي، فأصبحت نموذجاً احتذته الجوامع في المغرب والأندلس فيما بعد.

وُسّع الجامع عدة مرات، وزين بأعمدة رخامية، ولا تزال منارة هذا الجامع الضخمة التي تلفت انتباه القادمين من الشمال شاهداً على عظمة القيروان ودورها الإسلامي الحضاري.

ه/- حالة الفقه في حاضرة القيروان (11):

أسهمت حاضرة القيروان في انتشار مختلف العلوم النقلية والعقلية، وكان من أبرز ما عرفته من فنون العلم: الفقه، حيث ظهر منذ أول يوم وطئت أقدام فقهاء الصحابة ثراها، ولهم السبق في ذلك، فكان أهلها يسألون من حلّ بديارهم من الصحابة الكرام - رضوان الله عنهم أجمعين - ويستفتونهم، وكان مسجد القيروان وجامعها الأعظم مركز علم وإشعاع فقهي بامتياز، رغم ظهور عشرات المساجد ودور العلم بعد ذلك.

وبعد تلك الحقبة من الزمن ومع كثرة النوازل والملمات على أهل الإسلام في إفريقية، وتعدد المسائل والإشكالات، عمد أهل إفريقية عموماً والقيروان خصوصاً إلى إرسال مسائهم وتساولاتهم وما أشكل عليهم، إلى أعلام التابعين بعد القرن الأول، ما دفع الخليفة - بقية الخلفاء الراشدين - عمر بن عبد العزيز - رحمه الله تعالى - إلى إرسال عشرة من أعلام التابعين سنة 99 هـ، وكان هذا أول الغيث، ثم تتابعت بعد ذلك أفواج التابعين وتابعيهم لتفقيه المسلمين وتعليمهم أمور دينهم، وبدأت جموع طلبة العلم والمتعلمين في البروغ والظهور، فانتشرت علوم الدين عموماً والفقه خصوصاً... ولم يكتف أهل تلك الربوع بذلك بل عمدوا إلى الارتحال والرحيل - أفراد وجماعات - إلى مهد العلم والفقه في الدين: مكة والمدينة، وغيرهما من حواضر العلم والتعليم، وخاصة بعد وفاة عدد من التابعين وأهل العلم في الدين، الذين استوطنوا تلك البلاد، سواء في الحروب ومعارك الفتوحات أو غيرها.

ما ميز هذه الحركة العلمية هو نشاطها الكبير وسيرها في الاتجاهين، فكان فيها من يخرج ويشد الرحال لطلب العلم، إلى المشرق، ثم إلى المغرب وبلاد الأندلس بعد ذلك، وبالمقابل من يحل ويبسط رحاله في القيروان للتعليم وتفقيه الناس، من الاتجاهات ذاتها، المشرق والمغرب وبلاد الأندلس.

كان الفقه والمذهب السائد خاصة في القرن الأول هو فقه أئمة الصحابة والتابعين، المرتكز على معرفة الدليل من مصادره...، لكن بعد هذا العصر، وبعد ظهور المذاهب والمدارس الفقهية... تطور الأمر، ودخل بلاد إفريقية بعض المذاهب التي لم تمكث إلا برهة من الزمن كمذهب الإمام الأوزاعي - رحمه الله تعالى -، ومذهب الإمام الثوري - رحمه الله تعالى -، ثم مذهب الإمام داود الظاهري، ثم مذهب الإمام محمد بن إدريس الشافعي، هذا الأخير مال إليه عدد من أهل القيروان، إلا أنه لم يكتب له البقاء؛ حيث تمسك أهل هذه البلاد بمذهبي: مذهب مدرسة أهل الرأي المتمثل في فقه أبي حنيفة النعمان - رحمه الله تعالى -، الذي كان أول ما تعلق به أهل القيروان؛ ثم مذهب مدرسة أهل الحديث، المتمثل في فقه الإمام مالك بن أنس - رحمه الله تعالى - . إلا أن ما ورثه أهل القيروان من فقه الصحابة والتابعين المعتمد على معرفة الدليل ومضانه من مصادر التشريع،

جعل أمرهم يستقر على مذهب " ذاك النجم " عالم المدينة مالك ابن أنس -رحمه الله تعالى-، الذي ذاع وانتشر، وتعلق به أهل بلاد الغرب الإسلامي بشكل أكبر.

و- أبرز فقهاء حاضرة القيروان (12):

كانت القيروان حاضرة العلماء والفقهاء، وحاضنتهم منذ أول يوم أسست فيه وذكر اسمها، ولعل أبرزهم على الإطلاق علماء وفقهاء الصحابة الكرام -رضوان الله عنهم أجمعين-، على رأسهم العبادلة: عبد الله: بن عباس، وابن عمر بن الخطاب، وابن الزبير، وابن عمرو بن العاص، وابن سعد بن أبي سرح، وابن أنيس الجهني القضاعي...؛ إضافة إلى أبي ذر الغفاري، وعبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، وعقبة بن نافع الفهري، وغيرهم من الصحابة - رضوان الله عنهم أجمعين -، كما دخلها عدد من التابعين الكرام على رأسهم العشرة المرسلون من قبل عمر بن عبد العزيز -رحمهم الله أجمعين- ومن أبرزهم: أبو عبد الرحمن الحبلي، سعد بن مسعود التجيبي، إسماعيل بن عبيد الأنصاري... وغيرهم. ومن التابعين أيضا نجد أبا سعيد المقبري، وأبا عبد الله عكرمة مولى عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما- وكان كثير الرواية عنه، كما روى عن ابن عمرو ابن العاص، وأبي هريرة وغيرهم، ونجد أيضا عياض بن عقبة بن نافع؛ ويحيى بن سعيد الأنصاري وأبا أيوب سليمان بن يسار أخو عطاء بن يسار، وقد أخذ الحديث عن جماعة من الصحابة الكرام كأبي هريرة وعبد الله بن عمر وابن عباس -رضي الله عنهم-.

ومن التابعين أيضا نجد: أبا منصور مولى سعد بن أبي وقاص، روى عن بعض الصحابة كسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف وابن عمر وغيرهم -رضي الله عنهم-.

أنجبت القيروان بعد عصر الصحابة الكرام وتابعيهم بإحسان، علماء وفقهاء كبار اشتهروا وعرفوا بعلمهم وفضلهم، كان من أبرزهم:

عبد الله بن عمر بن غانم القاضي (ت: 190هـ) (13)، سمع من مالك وسفيان الثوري، وغيرهما.

علي بن زياد التونسي العبسي (14) (ت: 183هـ)، أخذ العلم والفقه من مالك وغيره، وأخذ عنه البهلول بن راشد، وسحنون بن سعيد، وغيرهما.

أبو مسعود، عبد الرحيم بن أشرس وقيل العباس (15)، سمع من مالك وابن القاسم وغيرهما.

البهلول بن راشد الحجري الرعيني، أبو عمر (ت: 183هـ) (16)، الذي تعلم وتفقه على يد كبار أهل العلم وأئمة الفقه في زمانه، كالإمام مالك بن أنس والليث بن سعد وسفيان الثوري وغيرهم، ومن أبرز من أخذ عنه العلم الإمام سحنون بن سعيد -رحمهم الله أجمعين- الأسد بن الفرات بن سنان (ت: 213هـ) (17)، صاحب الأسدية التي كانت باكورة المدونات الفقهية في بلاد الغرب الإسلامي.

الإمام أبو سعيد سحنون بن سعيد بن حبيب التنوخي (ت: 240هـ) (18)، صاحب أشهر كتب المالكية وأجلها "المدونة"، ثم ورثه ابنه محمد (19) الذي كان خير خلف لأبيه.

كما نجد أيضا محمد بن إبراهيم بن عبدوس بن بشير (ت: 260هـ) (20)، إضافة إلى فقهاء آخرين جاؤوا بعدهم، وكان لهم شأن وذكر واسع في تلك الربوع وخارجها، يتقدمه: عبد المالك بن حبيب (21)، وعبد الله بن أبي زيد القيرواني (ت: 386هـ) (22)، صاحب الرسالة والنوادر والزيادات على المدونة، والذي كان له فضل كبير في إعادة بعث مذهب مالك وإحيائه ونشره.

ح- أبرز مراكز التعليم والفقه في حاضرة القيروان (23):

مراكز العلم ومجالس التعليم والفقه كثيرة ومتعددة في حاضرة القيروان، كانت بساط الفقه والعلم الذي جمع العلماء بطلبتهم وغيرهم، تعددت وتنوعت، لكن الهدف واحد: ترقية الناس وتعليمهم دينهم، وفي هذه الأسطر أقتصر على ذكر بعضها فيما يأتي:

- المساجد:

المساجد هي مركز الإشعاع الأول الذي منه انطلقت أنوار العلم والفقه في بلاد الإسلام عموما وفي إفريقية والقيروان خصوصا، فكانت المساجد جوامع وجامعات في الوقت نفسه. يجتمع فيها الناس عموما وطلبة العلم خصوصا ويتحلقون في حلق حول عالم من العلماء أو فقيه من الفقهاء، ينهلون منه ما حباه الله تعالى وأكرمه به. ألحقت بعد ذلك بالمساجد قاعات ودور هي المكتبات التي كان يجتمع فيها طلبة العلم بالعلماء وبالكتب، في حلق خاصة كان لها دور بارز هي الأخرى في تدوين علوم الدين ونشرها؛ وأشهرها مكتبة جامع عقبة بن نافع الفهري بالقيروان، التي تحوي كتباً وقيمة. ويمكن

تميز نوعين من المكتبات: المكتبات العامة التي نجدها في المساجد والجوامع، ومكتبات خاصة بالعلماء أو بطلبة العلم (24).

- المكتاب والكتاب (الكتاتيب):

وهي دور مشهورة لتعليم الصبيان القرآن الكريم ابتداءً وانتشارها في البلاد كان له دور فعال، لا يقل شأنًا عن المساجد في التكوين الابتدائي لمن سيحمل مشعل العلم بعد ذلك. وكانت لها آثار كبيرة خاصة في تقويم الألسن وتعليم اللغة العربية وقواعدها لأهل بلاد الغرب عموماً من البربر وغيرهم (25).

- دور العلماء وبيوتاتهم:

جعل فقهاء القيروان وعلمائها من بيوتهم مراكز علم وفقه، يقصدها طلبة العلم ومن يسأل عن دينه، يجتمعون مع بعض الطلبة أو بعض الخاصة أو العامة من الناس، وهذا الأمر ليس بالغريب فقد جعل النبي -صلى الله عليه وسلم- من بيت الأرقم بن أبي الأرقم مركزاً لنشر الإسلام وتعليم النواة الأولى دينها، ولما هاجر جعل أول ما قام به هو بناء المسجد الجامع... وهذه السنن التعليمية والتوجيهية والمنهجية من نبينا -صلى الله عليه وسلم- لم يغفلها أهل العلم والعلماء بل ساروا على وفقها وحذوا حذوها، فكانت للإمام مالك حلق في بيته وسكانه -رحمه الله تعالى- إضافة إلى حلقه في المسجد (26).

- مجالس علمية أخرى:

إضافة إلى ما سبقت الإشارة إليه فقد وجدت أماكن أخرى لتعليم الناس ونشر الفقه في الدين، ومن أهمها: قصور الأمراء والملوك، التي كانت مجمع آخر للعلم، حيث كان الملوك والأمراء والحكام يأتون بالمربين والمؤدبين والمعلمين لأولدهم، فكانت جوانب من قصورهم كتاباً، كما كانت تعقد لهم مجالس مع العلماء في حضرة كبار الدولة من القادة والوزراء، وكانت تجري بين أيديهم المناظرات وتلقى الأشعار، وغيرها (27).

كما كانت تقام أيضاً في الأربطة وساحات القتال، حلق ومجالس لتعليم الناس دينهم والإجابة عن تساؤلاتهم، وحثهم على الفتح ونشر الدين، وفتح القلوب قبل الأوطان والأمصار.

4) حاضرة صقلية:

أ- أصل التسمية (28):

صقلية: بثلاث كسرات وتشديد اللام والياء مشددة أيضا، وبعضهم قال: سقلية بالسين، وأكثر أهل صقلية يقولون بفتح الصاد واللام، وهي جزيرة خصبة كثيرة المدن والقرى والأمصار. وهي من جزائر بحر المغرب (البحر الأبيض المتوسط حاليا، وهي في الجهة الجنوبية لإيطاليا).

ب- الفتح الإسلامي لحاضرة صقلية (29):

تولى الفقيه الكبير أسد بن الفرات (30)، بعد عودته من طلب العلم من بلاد المشرق، إلى القيروان واستقر بها، فقصده الناس للتعلم وأخذ ما جمعه ونهله، وكان يخص أتباع مذهب أبي حنيفة النعمان بخلق، وأتباع مذهب مالك بأخرى، فقد جمع علم وفقه كبار علماء المذهبين، إلى أن ولاه الأمير الأغلب القضاء، لكنه ومع تقدمه في السن وتجاوزه السبعين سنة من عمره، وجد في نفسه دافعا إلى السير والمشاركة في فتوح البلدان، فتولى قيادة جيوش المسلمين البحرية وأسطولها إلى جزيرة صقلية، وفتحت الجزيرة وانتصر المسلمون على الروم انتصارا عظيما، فتنقل أهل العلم وطلبته من القيروان إليها زمرا وجماعات وبدأت مرحلة جديدة في هذه البقاع، ودام حكم المسلمين لها ما يربو عن خمسة قرون، إلى أن استولى النورمانديون عليها مرة أخرى، وضاعت من المسلمين بعد الوهن والشتات الذي أصابهم.

ج/- حالة الفقه والفقهاء في حاضرة صقلية (31):

أسهمت حاضرة القيروان بشكل جلي في نشر العلم وانتشاره في حاضرة صقلية، كيف لا يكون ذلك وفتح الجزيرة بدأ من ربوع إفريقية وسواحلها، وقائد أسطول الفتح أحد علمائها وقضاتها. كان من أبرز ما عرفته هذه الحاضرة من فنون العلم: الفقه، حيث ظهر منذ أول يوم وطئت أقدام المسلمين ثرى الجزيرة، وحلت جيوش الفقهاء بها، يتقدمهم ويقودهم أسد من أسود الفقه: أسد بن الفرات؛ وعدد من تلامذة فقيه القيروان وأحد كبار أعلامها: سحنون بن سعيد، كعبد الله بن حمدون، وعبد الله بن سهل القبرياني الذي تولى قضاء صقلية. وأبو الربيع بن سالم القطان. ثم أبو الحسن أحمد

بن عبد الرحمن المعروف بابن الحصائري، الذي درس على أحد أكابر أعلام القيروان ورواد المذهب المالكي: ابن أبي زيد القيرواني صاحب الرسالة المباركة. كان لابن الحصائري الفضل في تأسيس النواة الأولى للمدرسة الفقهية في صقلية، وتخرج على يديه جماعة من الفقهاء الأعلام الذين كان لهم بعد ذلك أثر في نشر الفقه بين الناس وتعليمهم، إضافة إلى القضاء، ومن أبرزهم: ابن يونس الصقلي (ت: 451هـ)، وعتيق السمنطاري، وعتيق بن عبد الجبار الربعي الفرضي الصقلي، وغيرهم.

ومن علماء صقلية أيضا نجد: أبا بكر بن العباس الفرضي، الذي أخذ العلم عن ابن أبي زيد القيرواني؛ كان يدرس المدونة وأسهم في نشرها على نطاق واسع في الجزيرة،... وكان من أبرز تلامذته: ابن يونس التميمي الصقلي (ت: 451 هـ). كان لأبناء صقلية وطلبة العلم فيها الفضل في تأسيس المدرسة الفقهية الصقلية المستقلة عن القيروان، يتقدمهم الفقيه: أبو بكر محمد بن يونس التميمي الصقلي⁽³²⁾، والفقيه: عبد الحق الصقلي، وعتيق السمنطاري، وغيرهم.

د- أهم المؤسسات العلمية الفقهية في حاضرة صقلية⁽³³⁾:

مراكز العلم ومجالس التعليم والفقه لم تختلف عن تلك التي عرفها العالم الإسلامي في مشرقه أو في مغربه، فقد كانت كثيرة ومتعددة هي الأخرى في حاضرة صقلية، وهدفها واحد: تفقيه الناس وتعليمهم دينهم، وفيما يأتي ذكر لبعضها:

- المساجد:

المساجد هي مركز الإشعاع الأول دائما وفي أي عصر أو مصر من أمصار العالم الإسلامي، تنطلق منه أنوار العلم وإشعاعاته. كانت المساجد والجوامع أول ما يبنيه المسلمون الفاتحون، يجمع الناس للعبادة وللعلم، وللقضاء بين الناس وللتشاور فيما يحزب الناس من أمور دينهم ودنياهم...

عرفت جزيرة صقلية بكثرة مساجدها وخاصة عاصمتها " بلرم"، وهذا ما ساعد على انتشار حلق العلم والتعليم والكتاب فيها، فكان الأطفال يتلقون المبادئ الابتدائية من كتابة وقراءة ونحوهما، وقد ذكر أن المساجد كانت لها طوابق وهذا ما يفسر أنها جوامع وجامعات للعلم والفقه في الدين.

ألحقت أيضا بالمساجد المكتبات التي ينهل منها طلبة العلم ويستفيدون من علم من سبق، فكانت هي الأخرى إحدى منارات نشر العلم والفقه ومجمع العلماء والطلبة على حد سواء.

- المكاتب والكتّاب (الكتاتيب):

انتشار الكتاب في صقلية ارتبط أساسا بكثرة المساجد حيث كانت تجمع بين تعليم الصغار والكبار، وأسهمت بشكل كبير وواسع في نشر اللغة العربية وتعليمها وتحفيظ كلام الله تعالى، ثم بقية العلوم الأخرى.

- دور العلماء وبيوتاتهم:

لم يختلف الوضع بالنسبة لصقلية عن القيروان أو بقية الحواضر العلمية الأخرى، حيث جعل العلماء - بالإضافة إلى المسجد - دور سكنهم مراكز لنشر العلم والفقه، يقصدها طلبة العلم ومن يسأل عن دينه، يجتمعون مع بعض الطلبة أو بعض الخاصة أو العامة من الناس، إضافة إلى خلق المسجد والجوامع. مع شح وقلة ما نقل عن العلماء واستقبالهم طلبة العلم في بيوتاتهم، إلا أن الأمر غير مستبعد مع كثرة العلماء الذين وطئت أرجلهم ثراها.

- مجالس علمية أخرى:

لم يقتصر تعليم الصبيان على الكتاب أو المساجد فقد كان الملوك والأمراء وأصحاب الوجاهة من القادة والتجار يجلبون المؤدبين والمعلمين من أجل تعليم أبنائهم أوائل العلم وبداياته، وتحفيظهم كتاب الله تعالى.

إضافة إلى ما سبقت الإشارة إليه فقد دأب الملوك والأمراء والحكام على عقد مجالس ولقاءات ومناظرات علمية متنوعة، وهذا الأمر لم يكن غريبا على حاضرة صقلية وغيرها من حواضر العلم في بلاد الإسلام.

كانت تقام أيضا في الأربطة وعلى سواحل الجزيرة وفي الثغور خلق ومجالس لتعليم الناس دينهم والإجابة عن تساؤلاتهم وبوجه خاص الجنود وأمراء الجيوش، وحثهم على الفتح ونشر الدين، والدود عن حياض المسلمين.

- الخاتمة:

- في ختام هذا البحث يمكننا استخلاص النقاط الآتية:
- كان لحواضر العلم في بلاد الغرب الإسلامي أثر في تكوين الفقهاء وتطوير الفقه الإسلامي والنهوض به.
- كانت حاضرة القيروان حاضنة للفقه والفقهاء، وكان لها السبق في ذلك، حيث قصدتها منذ تأسيسها فقهاء الصحابة والتابعين، وأعلام المسلمين، فتولد من رحمها أكابر العلماء كأسد بن الفرات، وسحنون وغيرهما.
- جمعت روابط العلم الوثيقة حاضرة القيروان وصقلية، وكانت جليلة منذ أن قاد أحد أعلام فقهاء القيروان وقاضيهما: الأسد بن الفرات أسطول فتح جزيرة صقلية.
- امتدت روابط العلم بين الحاضرتين، حيث حطت جموع الفقهاء وطلبة العلم من القيروان رحالها بصقلية، فانتشر بها العلم والفقه في الدين.
- تشابهت حالة القيروان العلمية والفقهية بحاضرة صقلية، حيث إن الأولى قدمت إليها جموع العلماء والفقهاء منذ تأسيسها، ثم أنجبت علماء وفضلاء بعد ذلك واستقلت عن غيرها من الحواضر المشرق الإسلامي، حتى صارت لها مميزاتها وخصائصها، أعلامها ومؤلفاتها...، كذلك الشأن بالنسبة لحاضرة صقلية، فقد قصدتها هي الأخرى جموع العلماء وطلبة العلم منذ فتحها، حيث قاموا بنشر العلم والفقه واللغة ونحوها...، ثم تأسست مدرستها واستقلت عن القيروان، بعد أن أئمنت وأثمرت وأنجبت علماء كبار يتقدمهم الفقيه: أبو بكر محمد بن يونس التميمي الصقلي، والفقيه: عبد الحق الصقلي، وعتيق السمنطاري، وغيرهم.
- ضعف المسلمين وتفرقهم ووهنهم، أضعف قوة العقيدة والدين في نفوسهم، فتفرقوا شيعا، كل حزب بما لديهم فرحون، وذهبت ريحهم، واستولى النورمانديون على حاضرة، بكاهها وبيكيها تاريخ الإسلام عبر العصور، كما بكى وبيكى حواضر الجزيرة الخضراء الأندلس: قرطبة وإشبيلية وغرناطة، وغيرها كثير.

التوصيات:

أوصي الباحثين وطلبة العلم والمقبلين على إنجاز الأبحاث والدراسات المختلفة، بالاعتناء بحواضر الإسلام والدخول إلى أغوارها، ومحاولة استرداد كنوزها، من خلال المخطوطات والآثار، سواء من مكتبات عامة أو مكتبات خاصة.

كما أوصي بالإكثار من إقامة الأيام الدراسية والندوات الفكرية والملتقيات العلمية الوطنية منها والدولية، حول حواضر العلم في العالم الإسلامي عبر العصور، وتناولها من جميع الجوانب: الدينية والعلمية، الاجتماعية، السياسية،...

وصلّى الله على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه الكرام أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.

الهوامش:

- (1) الحموي، ياقوت بن عبد الله، أبو عبد الله (ت: 626هـ) معجم البلدان، (د.ت.ط)، دار الفكر، بيروت، لبنان، ج1، ص461.
- (2) ينظر: الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر، مختار الصحاح، إخراج دائرة المعاجم في مكتبة لبنان، 1986م، مادة: نزل، ص59-60؛ ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور المصري، لسان العرب، ج4، ط1، 1997م، دار صادر، بيروت، لبنان، مادة: نزل، ص197-200.
- (3) ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب (19/1)، تحقيق ومراجعة: ج.س.كولان و إ.ليقي بروقنسال، دار الثقافة بيروت لبنان، الطبعة الثالثة 1983م؛ شمس الدين الذهبي، الأمصار ذوات الآثار، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط ومحمود الأرناؤوط، دار ابن كثير بيروت لبنان، الطبعة الأولى (1405هـ-1985م)، ص56.
- (4) الدباغ، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الأنصاري (ت: 696هـ)، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، أكمله وعلق عليه أبو الفضل أبو القاسم عيسى بن ناجي التتوخي (ت: 839هـ)، تصحيح وتعليق إبراهيم شيوخ، 1388هـ-1968م، ط2، مكتبة الخانجي، مصر، ج1، ص7.

- (5) لسان العرب لابن منظور: 176/15، معجم البلدان، 420/4-421، البكري، أبو عبيد، عبد الله بن عبد العزيز (ت: 487هـ)، معجم ما استعجم، تحقيق: مصطفى السقا، 1403هـ، الطبعة الثالثة، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ص 1105-1106.
- (6) عقبة بن نافع الفهري هو ابن خالة عمرو بن العاص، ولد في أوائل الهجرة لذلك اعتبر صحابي المولد، تولى إمارة إفريقية مرتين، المرة الأولى من 50 هـ إلى 55 هـ/670م إلى 674م، في عهد معاوية بن أبي سفيان -رضي الله عنه-، والمرة الثانية من 60 هـ إلى 64 هـ/680م إلى 684م، في عهد يزيد بن معاوية -رحمه الله تعالى-. قتل سنة 63 هـ - 683م بعد استكمال فتح بلاد المغرب، رحمه الله تعالى رحمة واسعة. **خير الدين الزركلي**، الأعلام، ط5، 15، 2002، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 4/241.
- (7) ابن عذاري، المصدر السابق، ج1، ص19.
- (8) المصدر السابق نفسه.
- (9) المصدر نفسه، ج1، صص 19-20.
- (10) ينظر: **فاطمة عبد القادر رضوان**، مدينة القيروان في عهد الأغالبة (184هـ-296هـ)، رسالة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي، إشراف: د.أحمد السيد دراج، 1412-1991، جامعة أم القرى، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية، ص161؛ مساجد الإسلام، **أحمد فكري**، المسجد الجامع بالقيروان، (د.ب.)، مطبعة المعارف ومكتبتها، مصر؛ **محمد محمد زيتون**، القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية، ط1، 1408-1988، دار المنار، القاهرة، مصر.
- (11) ينظر: رياض النفوس، ج1، ص172، وص247 وص301، وص386؛ **فاطمة عبد القادر رضوان**، مدينة القيروان في عهد الأغالبة (184هـ-296هـ)، رسالة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي، مرجع سابق، ص161؛ مساجد الإسلام، **أحمد فكري**، المسجد الجامع بالقيروان، (د.ب.)، مطبعة المعارف ومكتبتها، مصر؛ **محمد محمد زيتون**، القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية، ط1، 1408-1988، دار المنار، القاهرة، مصر.
- (12) تنظر تراجمهم في: رياض النفوس، ج1، ص123، وص133، وص145-147، وص200.
- (13) تنظر ترجمته في: **ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك**، **القاضي عياض بن موسى بن عياض السبتي** (ت: 544هـ)، تحقيق: عبد القادر الصحرابي، ط 02، 1403هـ-1983م، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، ج3، ص65.
- (14) عياض، المصدر السابق، ج3، ص80.
- (15) المصدر نفسه، ج3، ص85.
- (16) المصدر نفسه، ج3، ص87.
- (17) المصدر نفسه، ج3، ص291.

- (18) المصدر نفسه، ج4، ص45.
- (19) المصدر نفسه، ج4، ص204.
- (20) المصدر نفسه، ج4، ص122.
- (21) المصدر نفسه، ج4، ص222.
- (22) المصدر نفسه، ج6، ص215.
- (23) فاطمة عبد القادر رضوان، مدينة القيروان في عهد الأغالبة (184هـ-296هـ)، ص261.
- (24) الدباغ، المصدر السابق، ج3، ص181.
- (25) المالكي، المصدر السابق، ج1، ص91.
- المصدر نفسه، ج1، ص284.
- (27) ابن عذاري، المصدر السابق، ج1، ص72؛ المالكي، المصدر السابق، ج1، ص276.
- (28) الحموي، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله البغدادي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، لبنان، ج3، ص416.
- (29) الدباغ، المصدر السابق: ج2، ص19؛ شوقي أبو خليل، فتح صقلية بقيادة الفقيه المجاهد أسد بن الفرات، دار الفكر المعاصر بيروت لبنان، ودار الفكر بدمشق سوريا، ط1، 1418هـ-1998م، ص70؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج3، ص416.
- (30) تنتظر ترجمته في: ترتيب المدارك للقاضي عياض، ج3، ص291؛ ابن فرحون المالكي (ت: 799هـ)، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تحقيق: محمد الأحمد أبو الأنوار، (د.ت)، دار التراث، القاهرة، مصر، ج1، ص305.
- (31) ينظر: علي بن محمد بن سعيد الزهراني، الحياة العلمية في صقلية الإسلامية (212-484هـ / 826-1091م)، رسالة دكتوراه، تخصص: الحضارة والنظم الإسلامية، إشراف: د. ضيف الله بن يحيى الزهراني، 1417هـ - 1996م، جامعة أم القرى، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي مكة المكرمة -، ص113-136، وص507-561.
- (32) تنتظر ترجمته في: ترتيب المدارك للقاضي عياض، ج8، ص114.
- (33) ينظر: الزهراني، المرجع السابق، ص131-147.

قائمة المصادر والمراجع:

- (1) ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب (19/1)، تحقيق ومراجعة: ج.س. كولان وإليقي بروقنسال، الطبعة الثالثة 1983م، دار الثقافة بيروت لبنان.
- (2) ابن فرحون المالكي (ت: 799هـ)، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تحقيق: محمد الأحمد أبو الأنوار، (د.ت)، دار التراث، القاهرة، مصر.
- (3) ابن منظور، أبو الفضل، جمال الدين محمد بن مكرم المصري، لسان العرب، ط1، 1997م، دار صادر، بيروت.
- (4) أحمد فكري، مساجد الإسلام: المسجد الجامع بالقيروان، (د.ط)، مطبعة المعارف ومكتبتها، مصر؛
- (5) البكري، أبو عبيد، عبد الله بن عبد العزيز (ت: 487هـ)، معجم ما استعجم، تحقيق: مصطفى السقا، 1403هـ، الطبعة الثالثة، عالم الكتب، بيروت، لبنان.
- (6) الحموي، ياقوت بن عبد الله، أبو عبد الله (ت: 626هـ) معجم البلدان، (د.ت.ط)، دار الفكر، بيروت، لبنان. وطبعة: دار صادر، (د.ت)، بيروت، لبنان.
- (7) خير الدين الزركلي، الأعلام، ط15، 2002، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان.
- (8) الدباغ، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الأنصاري (ت: 696هـ)، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، أكمله وعلق عليه أبو الفضل أبو القاسم عيسى بن ناجي التنوخي (ت: 839هـ)، تصحيح وتعليق إبراهيم شبوح، 1388هـ-1968م، ط2، مكتبة الخانجي، مصر.
- (9) الدباغ، أبو زيد، عبد الرحمن بن محمد الأنصاري الأسدي (ت: 696هـ)، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، أكمله وعلق عليه: أبو الفضل أبو القاسم بن عيسى بن ناجي التنوخي (ت: 839هـ)، تصحيح وتعليق: إبراهيم شبوح، 1388هـ-1968م، الطبعة الثانية، مطبعة السنة المحمدية، مصر.
- (10) الرازي، محمد بن أبي بكر، مختار الصحاح، 1986م، إخراج دائرة المعاجم في مكتبة لبنان.

- 11) **الزهراني، علي بن محمد بن سعيد**، الحياة العلمية في صقلية الإسلامية (212-484هـ/826-1091م)، رسالة دكتوراه، تخصص: الحضارة والنظم الإسلامية، إشراف: د. ضيف الله بن يحيى الزهراني، 1417هـ-1996م، جامعة أم القرى، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي - مكة المكرمة -.
- 12) **شمس الدين الذهبي**، الأمصار ذوات الآثار، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط ومحمود الأرناؤوط، الطبعة الأولى (1405هـ-1985م)، دار ابن كثير بيروت لبنان.
- 13) **فاطمة عبد القادر رضوان**، مدينة القيروان في عهد الأغالبة (184هـ-296هـ)، رسالة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي، إشراف: أحمد السيد دراج، 1412-1991م، جامعة أم القرى، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية.
- 14) **القاضي عياض بن موسى بن عياض السبتي** (ت: 544هـ)، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تحقيق: عبد القادر الصحراوي، ط2، 02، 1403هـ-1983م، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية.
- 15) **المالكي، أبو بكر عبد الله بن محمد**، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونسأكلهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم، تحقيق: بشير البكوش، راجعه: محمد العروسي المطوي، 1414هـ-1994م، الطبعة الثانية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان.
- 16) **محمد المختار محمد المامي**، المذهب المالكي: مدارسه ومؤلفاته-خصائصه وسماته، ط1، 1422هـ-2002م، مركز زايد للتراث والتاريخ، إ.ع.المتحدة.
- 17) **محمد زيتون**، القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية، ط1، 1408-1988م، دار المنار، القاهرة، مصر.